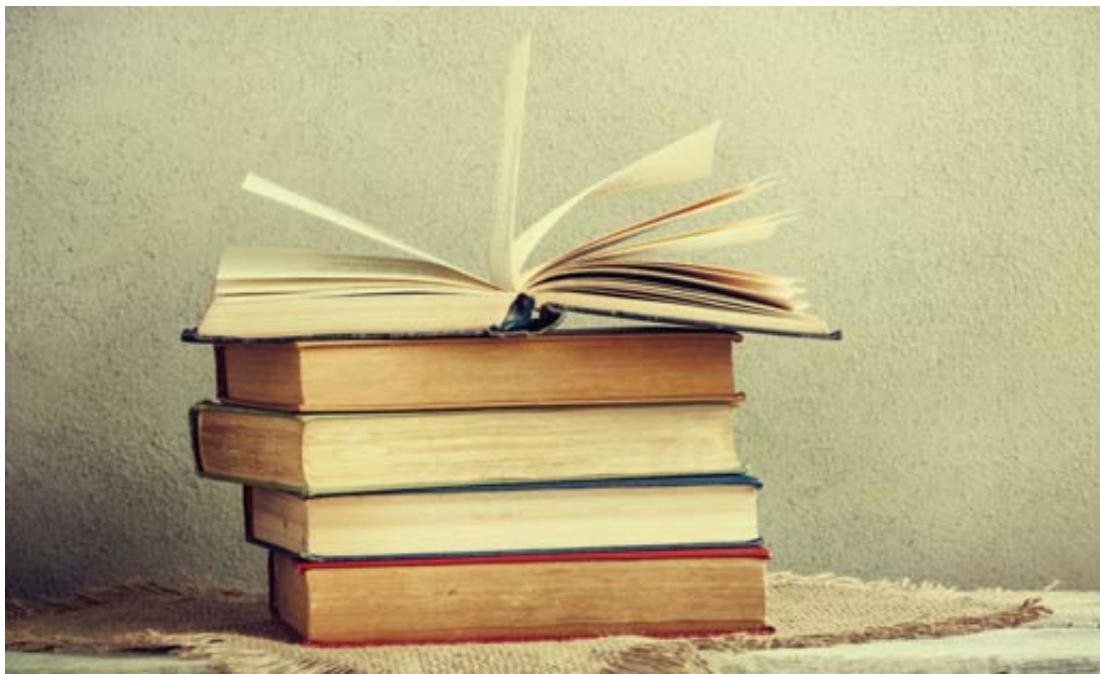


الكلام والكتابة من أهم محاور الحداثة



يعتبر الباحث أن["] الانتقال من الكلام إلى الكتابة هو أهم محاور الحداثة وأكثرها حسماً فيما يتعلق بالفلك والفن والأدب.

هذا الانتقال يعني الانتقال من المسموع إلى المرئي، ولهذا فقد كانت الكتابة ملازمة للصناعة، ولذلك عمت في عصر التكنولوجيا بحيث أزّهم يستعipضون بها اليوم عن الكلمة (أدب)، (فرولان بارت) يرى الإبداع ليس في الأسلوب، بل في الكتابة. وعلى هذا فإن["] الحضارة العربية ليست وحدها كلامية، بل كافة الحضارات القديمة. وإن كنا لا نزال إلى اليوم نعيش مرحلة الكلام بدليل أزّنا نطلب من الشاعر أن ينشد قصيده. فنحن وإن كنا أخذنا بعض أسباب التكنولوجيا، فإنّنا لانزال نعيش قبل عصر التكنولوجيا بكثير، وربما إلى حد["] ما في عصر البداوة، ومع ذلك لا يزال للكلام دوره، فالذى هو["] للفلسطينيين من لاجئين إلى شعب، على الصعيد الثقا في هو شعرهم بعد النكبة، وهذا الشعر كلامي، ومما يدعو إلى الحيرة أن["] شعر محمود درويش يمعن أكثر فأكثر في تبني حداثتنا الشعرية.

إن["] المعادل لعيشنا في عصر الكلام هو أن["] العائق عندنا لاتزال شخصية، وأيضاً الولاء، فنحن ننتسب

قولاً للأُمّة، وفعلاً للذى يمثلها مباشرة بالنسبة إلينا، وقد يكون مَن يمثلها زعيم محلى في قرية. والانتقال من الولاء الشخصي إلى الولاء الموضوعي (الأُمّة).. هو الثورة الحقيقية اجتماعياً وإنسانياً التي يتوقف عليها وجودنا عرباً.

فموضوع الكتابة يتجاوز الأدب، إذ أَنَّه يشمل محمل الوجود الإنساني.. علاقة الإنسان بال الموجودات.. وهناك ثلاثة تبدلات تشير إليها كلمة الكتابة:

أولاً: التبدل في الصلة بين الناس، فقد أصبحت غير مباشرة، تمر بتوسطات عديدة، منها التشريع، والدولة، والمؤسسات الحكومية، وغيرها.

أي هيمنة المغفل حيث الأخوائي أو الخبير الذي يتعامل مع المجموعات الشعبية بوصفها معادلات رياضية كأشكال هندسية، هي الأطر الكبرى التي على الناس أن ينتظموا ضمنها، وهذا الخبير راح يحل محل السياسي.

ثانياً: يتناول نظرتنا إلى الموجود في وجوده.

التبديل الثالث: هو تبدل إيقاع الموجودات، الذي على الشعر أن يقوله... هذه التبدلات استوجبت إعادة النظر في الأداة التعبيرية، فقد بدأ التبدل الأول بالموسيقى في نهاية الرومانسية مع فاغنر، الذي ألغى النغم، ثم تبعه شومبرغ الذي ألغى اللحن، وفي مرحلة ثالثة أنت الموسيقى الإلكترونية، حيث تقسيم الصوت الواحد إلى أصوات كثيرة لا متناهية فـ"ستوكهاوزن"، عبقرى الموسيقى الإلكترونية، وضع أوبرا يستفرق عرضها أياماً، مما يدل على أن الموسيقى أصبحت هي أيضاً كتابة تتوجه إلى البصر أكثر مما تتوجه إلى السمع، الأمر الذي يتطلب تبديلاً في ملكة الفهم. وعلى صعيد الفن التشكيلي تمت عملية طمس صورة الإنسان تدريجياً، وفك الإنسان ونثر إلى قطع حيث سوّي بينه وبين الشيء، وتحوّل الموجود بالنتيجة إلى مجموعة أشكال هندسية.. فتحوّلت اللوح إلى سطح فارغ لا طول له ولا عرض ولا عمق.. والحجم بعد التكعيبية توارى بسرعة بحيث أصبح المجرد هو المشخص، وهذا وجه واحد من أوجه التطور باتجاه التجريد.. والمعادل الثقا في لذلك إحلال المفترض محل اليقيني.. وهذا تحطيم للعقل الكلى الذي اعتبره الفكر الكلاسيكي برمته مبدأ كل "تأليف وكل" موجود.. وهذا معناه أن أساس العلم هو لا أساس، وأن "النص، علمياً" كان أم فنياً، هو ما يريد له صاحبه.

أما ما يقال عندنا عن الالتزام، فهو من نوع التعقيدات والعقد التي فرضتها عليه حضارة أخرى لم

يُكن معداً لها . ويتقدم زكريا تامر كمثال لمن أدرك ذلك بحسه السليم، حيث يبحث عن صورة المجتمع الجديد وهو يقول التزامه عبر بحثه.

وفي هذا السياق تتم الإشارة إلى القطيعة التي أقامتها الحداثة مع الماضي، ويسوق الباحث الدليل من خلال ما سماه تحطيم العروض الخليلي الذي هو دستور القول الشعري، وعلى ذلك فإن "الحداثة ت يريد ذاتها من دون ذاكرة .

فالقول بدون قائل: واللغة بدون بيان، والوجود بدون وجود، إذن من الذي يقول ويبين ويوجد، التقني المُغْلَل إذا شئت.. فالحداثة هي صمت الكلام، صمت يحيل إلى التقني.. فالوجود كتابة بدون كلام.

- فمعقولية الحداثة إذن: إجرائية.

فهي ليست مثالية، وهي ليست معاني كما المثل الأفلاطونية، أو معنى كما لدى هيجل، حيث يولد المعنى الموجودات، أي إليه يرتد الموجود، فالمعنى ما تعني، ما تدل إليه، وهذا يحيل إلى مدلول آخر.

وهي ليست مادّية، فالقوى المنتجة، على أهميتها في المرحلة الحاسمة، ليست ولا يمكن أن تكون أساساً، وليس مرجعاً ترتد إليه المراجع.

فالحداثة صهرت التعارض الكلاسيكي بين المادّية والمثالية في وحدة أخرى، هي، التي، في الطريق إلى الكشف عن نفسها . إنّها معقولية بناء، حيث البناء الصارم يستثير التجربة ليمتصها وتفلت من يده فيعيid الكرة.

وهي معقولية نماذج، والنموذج ليس نموذجياً .

إنّها معقولية إجراء، إذ تقوم على بناء آلة من المجردات.

والمحظوظ في الحداثة مغلق، أي أنّه يؤلف وحدة لها ضوابطها الذاتية، أي قواعد التكوّن والصياغة

الصورية والاستنتاج، ولها أيضاً أحوالها، فهي تحيل الموجودات والوحدات الأخرى إلى العوامل السيكولوجية، السوسنولوجية، إلى البيئة والتاريخ والوراثة، فالإحالات هي دلالات.

هذا النص الأخير يعود إلى سنة 1975م، وهو ينطوي على المكوّنات الأولى لفهم - مقدسي - للحداثة، إذ سند هذه المكوّنات تشكّل نواة الجذر المعرفي لكلّ ممارسات الكتابة عنده، حيث في النصوص اللاحقة يطوّر ويغنى تعرفه على التيارات الفكرية الغربية بتنوع اصطلاحاتها المنهجية ليضعها جميعاً تحت عنوان الحداثة.

فالحداثة لدى - مقدسي - هي كلّ التيارات التي عرفتها الساحة الفرنسية منذ الخمسينات حتى الثمانينات (الوجودية - البنوية - الاستمولوجيا - الألسنية).

فكلّ رواد هذه التيارات يدرجها تحت مصطلح الحداثة، بوصف الغرب ممثلاً لكلّيتها، فكلّ ما يشهد الغرب من تنوع في التيارات بغض النظر عن وظيفتها المعرفية والإيديولوجية تتوحد تحت ميتافيزيك الحداثة التي هي كلّ شيء، وفي المال تتبدى وكأنّها لا شيء. وعلى هذا تغدو الحداثة فضاء مطلقاً للعقل، هذا الفضاء يمكن أن تتعاش في فيه كلّ التيارات (مادّية أم مثالية - تقدمية أم رجعية - ديمقراطية أم فاشية). مادامت نتاج مجتمع التكنولوجيا الذي هو سقف الوجود المنغلق على حدوده اللغوية، مادامت اللغة كياناً من التبعيات الذاتية على حدّ تعبير شومسكي.

بل إنّ نص الحداثة في خطاب - الباحث - لا يتعرّف على معاني أو دلالات هذه المفردات (مادّية - مثالية - ديمقراطية - رجعية - فاشية) فهذه مفردات تتحرّك في حقل تداولي لما قبل الحداثة، فالحداثة كلية الخطة التي تكمّن وراءها قوّة المغفل فالناس في دنيا الحداثة يصنعون ولا يتكلّمون والأخصائي يراقب، فلا سؤال ولا جواب.. الآلة تحفظ وتذكر وتذكّر، فالإنسان خادم الآلة، خادم أسيادها، والخادم يطيع، وفي دنيا الانتاج والاستهلاك الإنسان رقم، فإنّسانيته جسده.. أي اندفاعاته الشهوية، فهو حزمة انفعالات تستثار بصوت مجهول لا يفهم إلا قوله، وهذا الصوت المجهول هو الإعلام.. الذي هو كلي المعرفة يحدد لك ذوقك وأحساسك وموافقك وسياساتك.

فالمادّية والمثالية تنصهر في وحدة أخرى، ما هي هذه الوحدة؟ يجيب الكاتب إنّها في الطريق إلى الكشف عن نفسها.

ومادامت المادّية والمثالية قد انصهرتا في بوتقة واحدة، فإنّه لم يعد هناك معنى للتاريخ. ووعي

التاريخ، فلم يعد هناك ذات أو موضوع، والانعكاس هو أضعف ما أنت به الماركسية. وإن كان مفعولها السياسي قوياً، فإنّ مفعولها الأدبي ضعيف جدًا، ويفسر الانعكاس على أنّ النص عاكس لظرف اقتصادي ما.

إنّ البلبلة والتتشوش سمة مميزة للحداثة التي ت يريد أن تنطوي على وجود بدون وجود، وعلى نص بدون نص، وعلى سؤال بدون سؤال، ولذا فلن يستغرب في هذا السياق أن نجد الكاتب يؤكد باستمرار على أنّ النص مغلق مستقل مكتف بذاته، وفي الآن ذاته يحيل إلى عوامل سوسيولوجية وسيكولوجية وبيئة وتاريخ ووراثة. كما مرّ معنا، بل إنّ التناقض يبلغ ذروته عندما نجده يؤكد في صفحة ما ينقصه في الصفحة الثانية. يقول: فالوجود لم يعد قائماً بذاته كما كان يرى فكر ما قبل الحداثة.

على الرغم من انطلاقه من استقلالية النص بوصفها السمة الأساسية والأولى لمنظور الحداثة، التي ألغت المنظور في كلّ الأحوال، في كلّ ما يكتب، فإنه يشير إلى أنّ استقلالية الموجود هي نتاج فكر ما قبل الحداثة، وبعد صفة فقط يعود إلى القول: في منظور الحداثة هذا تصبح الكتابة - النص الذي هو مجال توضيعها (أي هو موجدها) - مادّة خاماً.. تنتج ذاتها وتتكاثر بفعل قوتها الخامسة لتكون عالماً لغوياً، كتابياً، إنسانياً مغلقاً لا يحيل إلا إلى ذاتها.

ربما اعتبر الكتاب أنّ الطريقة التي نستخدمها في الكشف عن التناقض، هي طريقة قديمة ما قبل الحداثة، أي مبدأ أرسطو حول (وحدة الهوية وعدم التناقض)!

فالحداثة: هي اللذات الأساسية، الالاقول، واللاذكرة، حيث بالإمكان تمديد هذه المتوازية من (اللاءات) إلى ما لا نهاية: اللامنطق، واللاعقل، واللاحادثة.

وبذلك فإنّ الكتابة الحداثية تغدو ممكناً قول أي شيء، بالدرجة ذاتها التي يمكن لا قوله، وفي الحالتين (القول واللاقول) يمتلكان الدرجة نفسها من المشروعية في ميتافيزيقا الحداثة، حيث الحرّية القصوى التي تتطلع لها من عالم الضرورة، إذا كان للضرورة من معنى في هذا السياق (الحداثي) - هي حرّية التحرر من العقل.

إنّ الوضعية المنطقية التي هل الطل الفلسفى لكلّ تيارات الحداثة، تخلّى في الوعي (المحدث) العربي عن المنطق، ليبقى الوضع بمثابته المطلقة الوحيدة. فلا غرو إذن، من أن تنتقد نظرية الانعكاس الماركسية، وفق لا منطقيتها في فهم الانعكاس، حيث تقدم نظرية الانعكاس في صيغة أنّ (الأدب عاكس

للظروف الاقتصادية). إنّ فهـماً من هذا النوع لا تبرره إلـا عدوانية لا عقلية تجاه الفكر الإنساني، فليس في أدبيات الماركسية بمجموعها مثل هذه الصيغة الساذجة في طرح وفهم الانعكـاس.

فالعكس ليس الأدب، بل هو الإنسان المنتج للأدب، الثقافة، البناء الفوقي، وكـون الإنسان هو العـاكـس فإنّ عملية الانعـكـاس على درجة من التعـقـيد والتـداخـل والتـفـاعـل والتـكـافـع بالـدرـجـة ذاتـها لما يـكونـ عليهـ العالمـ الداخـليـ للإنسـانـ الذيـ يـمـتـصـ منـ العـالـمـ الـخارـجيـ كلـّـ مؤـثـرـاتهـ وـليـسـ العـوـاـمـ الـاقـتصـادـيـ إـلـاـ واحدـاـ منـ المؤـثـرـاتـ وإنـ كانـ أـسـاسـياـ.

فالـواـقـعـ،ـ العـالـمـ الـخارـجيـ بـكـلـّـ تـداـخـلـ وـتـشـابـكـ عـنـاصـرـهـ هوـ الـمـنـعـكـسـ،ـ وـالـإـنـسـانـ بـكـلـّـ تـداـخـلـ وـتـشـابـكـ مـكـوـنـاتـهـ (ـالـرـوـحـيـةـ وـالـثـقـافـيـةـ وـالـورـاثـيـةـ وـالـتـارـيـخـيـةـ)ـ هوـ الـعـاكـسـ الـذـيـ يـمـثـلـ جـملـةـ منـ التـوـسـطـاتـ الـمـرـكـبـةـ،ـ لـانتـاجـ الأـدـبـ،ـ الثـقـافـةـ (ـالـإـنـتـاجـ الـرـوـحـيـ عـامـّـةـ،ـ هوـ اـنـعـكـاسـ وـلـيـسـ الـعـكـسـ،ـ أيـ لـيـسـ الأـدـبـ عـاكـســاـ،ـ بلـ الـإـنـسـانـ هوـ الـعـاكـسـ،ـ فـالـأـدـبــ كـلـّـ الـبـنـاءـ الـفـوـقـيــ اـنـعـكـاســ،ـ معـ كـلـّـ ماـ يـتـرـافقـ معـ هـذـهـ الـعـمـلـيـةـ تـوـسـطـاتـ هيـ أـشـدـ تـعـقـيدـاــ بـمـاـ هيـ أـشـدـ تـرـكـيبـاــ).

إنّ تـطـوـرـ وـعيـناـ بـالـقـانـونـ،ـ لـاـ يـعـنـيـ تـغـيـرـاــ بـالـقـانـونـ ذاتـهـ،ـ بلـ تـغـيـرـاــ فـيـ وـعـيـهـ وـاـمـتـلاـكـهـ مـعـرـفـيـاــ،ـ وـإـذـاـ كـانـتـ نـظـرـيـةـ اـنـعـكـاسـ الـتـيـ هيـ ثـمـرـةـ الـمـتـحـقـقـ فـيـ مـحـالـ الـعـلـومـ الـطـبـيـعـيـةـ وـالـفـيـزـيـائـيـةـ،ـ قدـ تـعـرـضـتـ إـلـىـ اـبـتـسـارـاتـ فـجـةـ،ـ أـوـ اـخـتـزـالـاتـ سـاذـجـةـ كـمـاـ قـدـمـهـاـ الـبـاحـثـ،ـ لـاـ يـعـنـيـ أـنـّـ القـانـونـ باـطـلـ،ـ فـالـنـيـاتـ وـإـنـ كـانــ فـيـ بـيـتـ تـقـلـيـديـ رـجـعـيـ أـمـ فـيـ بـيـتـ طـلـيـعـيـ،ـ سـيـطـلـ أـبـدـاــ يـتـجـهـ بـسـوقـهـ نحوـ النـورـ،ـ نحوـ النـافـذـةـ المـضـاءـ،ـ وـسـتـرـتـبـ الـأـورـاقـ الـعـمـودـيـةـ فـيـهـ عـلـىـ الـأـشـعـةـ الـنـيـرـةـ،ـ أيـ فـيـ اـتـجـاهـ شـمـسـيـ،ـ بـفـعـلـ اـنـعـكـاسـ الـشـرـطـيـ الـطـبـيـعـيـ،ـ أـمـاـ مـاـ يـقـولـهـ فـوـكـوـ عـنـ تـوـجـهـ هـذـهـ الـزـهـرـةـ بـقـوـةـ التـجـاذـبـ وـالـتـعـاطـفـ وـالـحـبــ فـهـوـ قـوـلـ يـنـدـرـجـ بـالـإـحـسـاسـ الـشـعـريـ الـجـمـيلـ نحوـ الـعـالـمـ،ـ وـلـاـ صـلـةـ لـهـ بـالـقـوـانـينـ الـمـوـضـوعـيـةـ الـتـيـ تـحـكـمـ الـنـامـوسـ الـطـبـيـعـيـ وـالـكـوـنـيـ.

"إنّ مـفـهـومـ الـفـعـلـ الـمـتـبـادـلـ،ـ حـتـىـ بـشـكـلـهـ الـمـيـكـانـيـكـيـ الـأـكـثـرـ بـدـائـيـةـ،ـ وـبـاـلـأـحـرىـ،ـ بـأـشـكـالـهـ الـأـكـثـرـ تـعـقـيدـاــ وـالـتـيـ تـفـحـصـنـاـهاـ عـبـرـ تـحـولـاتـ الطـاـقةـ الـمـتـعـدـدـةـ،ـ يـظـهـرـ لـنـاـ فـيـ أـسـسـ بـنـاءـ الـمـادـّـةـ ماـ يـمـكـنـ أـنـ تكونـ عـلـيـهـ هـذـهـ الـخـاصـّـةـ مـنـ خـصـائـصـ اـنـعـكـاسـاتـ الـمـمـاـثـلـةـ لـلـحـسـاسـيـةـ،ـ لـكـنـّـهـاـ لـيـسـ هـيـ بـعـيـنـهاـ،ـ فـالـقـضـيـةـ هـنـاـ لـيـسـ قـضـيـةـ (ـمـوـنـادـاتـ Monadatـ)ـ كـلـّـ وـاحـدـ مـنـهـاـ يـعـكـسـ عـلـىـ غـرـارـ رـوـحـ،ـ الـعـالـمـ كـلـّـهـ،ـ بلـ إـنـّـ كـلـّـ جـزـيـءـ مـنـ الـمـادـّـةـ،ـ فـيـ تـشـابـكـ الـأـفـعـالـ الـمـتـبـادـلـةـ،ـ وـالـتـيـ تـشـكـلـ الـصـيـرـوـرـةـ،ـ يـعـكـسـاـ بـشـكـلـ ماـ،ـ كـلـّـ الـعـالـمـ الـذـيـ يـدـوـيـ فـيـهـ بـدـرـجـاتـ مـخـتـلـفـةـ".ـ

يـقـومـ الـدـكـتـورـ هـشـامـ شـرـابـيـ بـصـيـاغـةـ تـرـسـيمـةـ ذاتـ دـلـالـةـ هـامـةـ فـيـ الـكـشـفـ عـنـ التـماـيزـ بـيـنـ بـنـيـتـيـنـ:ـ بـنـيـةـ

المجتمع الحديث وبنية المجتمع التقليدي: بُشير - شرابي - إلى أنّ الحداثة بهذا المعنى هي نتاج أوروبا والثورة البورجوازية، فما يميز نشوء الرأسمالية الحديثة هو طابعها الثوري في رأي ماركس، وهو عقلانيتها في رأي ماكس فيبر.

ويخلص إلى أنّ الحداثة (عقل وثورة) فالحداثة بكلّ خصائصها الحيوية (الحركية والتغيير) هي - وفق ماركس- ثمرة الثورة البورجوازية التي جعلت كلّ شيء صلب يتبخّر وهي عقل - عند فيبر - لأنّ العقل العلمي الذي يدرك العلاقة بين الوسائل والغايات، والبيروقراطية بترشيدها لجميع الوظائف والغايات هي السياق الذي دفع العالم كله إلى إزالة الأسطورية.

ويخلص الدكتور شرابي - إلى أنّ استخلاص ثلاث خصائص تميز الحداثة، معتمداً على كتاب لـ "برمان" يستقصيها استناداً إلى التجربة الأوروبية منذ القرن الخامس عشر حتى القرن العشرين، فيصفها على الشكل التالي:

1- الحداثة بوصفها بنية كلية ويقابلها مفهوم الحداثة Modernity.

2- الحداثة بوصفها سياقاً شاملاً ويقابلها مفهوم التحديث Modernisation.

3- الحداثة بوصفها نوعياً وعيياً ويقابلها النزعة الحداثية Modernisme.

فالحداثة بوصفها بنية، هي مجموع العناصر وال العلاقات التي يتتألف منها الكيان الحضاري المتميز المدعو حديثاً.

الحداثة بوصفها تحديناً، هي سياق التحول الاقتصادي والتكنولوجي.

الحادي من حيث هي وعي، فهي تشكّل نموذجاً ونمطاً فكريّاً تجد فيهما أوروبا الحديثة هويتها، وإنما النزعة الحداثية، من حيث هي وعي الحداثة، فتمثل رؤية خامسية تنطوي على تغيير الذات والعالم، وهي الرؤية التي لا تجد تعبيراً عنها في "العقل والثورة" وحدهما، وإنما كذلك في الفن والأدب والفلسفة.

